

القيم الثقافية العربية الإسلامية كمبدأ لصياغة نظرية اجتماعية عربية

د - سامية عدائكة، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، الجزائر

أ - محمد مسعود زكري - جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر

البريد الإلكتروني: Samiasamia444@yahoo.fr

ملخص:

يواجه علم الاجتماع في العالم العربي إشكاليات متعددة، تعود إلى الأزمة التي يعاني منها علم الاجتماع الأوروبي والأمريكي، والمتمثلة في عجزه عن تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية الحديثة، واتهامه بخدمة الأيديولوجيات المختلفة سواء الرأسمالية أو الاشتراكية، وهذا ما دعى الباحثين العرب إلى فكرة الصياغة العربية لعلم الاجتماع، ذلك لأن علم الاجتماع الغربي نشأ وتطور على ضوء المبادئ الثقافية والتصورات الفكرية لعلماء الغرب التي تختلف تماما عن المبادئ الثقافية العربية الإسلامية، وسيتناول هذا الموضوع الخصائص الثقافية العربية الإسلامية كمبدأ لصياغة نظرية اجتماعية عربية.

الكلمات المفتاحية: القيم، الثقافة، النظرية الاجتماعية

Islamic Arab cultural values As a principle to formulate Arab social theory

Abstract :

Sociology in the Arab world is facing multiple problems, dating back to the crisis suffered by the flag of the European and American meeting, and of his inability to explain much of the modern social phenomena, and charged with various ideologies, whether capitalist or socialist service, and this is what called for Arab researchers to the idea of drafting Arab science the meeting, because of Western meeting evolved in the light of the principles of cultural and intellectual perceptions of Western scientists that are quite different from the Arab-Islamic cultural principles, and will address the Arab-Islamic cultural characteristics of the subject as a principle for the formulation of an Arab social theory.

مقدمة

كانت نشأة علم الاجتماع وبشهادة الكثير من الغربيين على يد العلامة العربي المسلم عبد الرحمان ابن خلدون الذي قام بدراسة شاملة لمظاهر التجمع الإنساني مستخدماً مناهج وطرق بحث علمية، وبعد ذلك أخذ علم الاجتماع في التطور على يد علماء الغرب بداية بأوغست كونت، ودروركايم. . .

إن فكرة الصياغة العربية الإسلامية لعلم الاجتماع تعني أن هناك مشكلاً يواجه هذا العلم، و تتعدد أسباب هذا الأشكال لكن أهمها، هي الأزمة التي آل إليها علم الاجتماع الغربي والأمريكي، وهي عجز علم الاجتماع عن تفسير الظواهر الاجتماعية، وكذلك انغماسه في خدمة الأيديولوجيات المختلفة سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية.

حيث لم يكن لعلماء العرب والمسلمين أي إسهام جاد و ثري في التراث النظري السوسيولوجي، رغم محاولات بعض الباحثين أمثال المفكر الجزائري مالك بن نبي، وظل الغرب المنتج الأول للتراث المعرفي السوسيولوجي، وهو ما جعلنا نستورد هاته النظريات والأطر العلمية السوسيولوجية ومحاولة الأخذ بها لتفسير مختلف الوقائع الاجتماعية، مما أنتج إشكالية رئيسية تتمحور حول مدى صحة هذا الاستخدام، بما أن المجتمعات الغربية تختلف ثقافياً عن مجتمعاتنا العربية الإسلامية، ولا يختلف اثنان في أهمية العلوم الاجتماعية التي كانت نقطة التحول التي أخرجت أوروبا من الظلام الكنسي الذي سجن الفكر الأوروبي لسنوات قبل مجيء أوغست كونت والفلسفة الوضعية التي كانت انطلاقة الحضارة الأوروبية، إن عملية استيراد نتائج الفكر الاجتماعي الغربي خلق لنا مشكلة كبيرة وذلك أن هذا التراث النظري السوسيولوجي نتيجة لتفاعل اجتماعي وله ارتباط وثيق بقيم المجتمع وثقافته وانتماءاته الحضارية. وبالتالي فنحن بحاجة إلى التعرف عن الخصائص الثقافية لمجتمعاتنا وجعلها البنى الرئيسية لأي عمل نظري يحاول تفسير الظواهر الاجتماعية. و على هذا الأساس سيكون محور إشكالية هذا البحث حول القيم الثقافية الإسلامية كمبدأ لبناء نظرية عربية إسلامية في العلوم الاجتماعية.

أولاً: نشأة وتطور الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية

لقد عرف علم الاجتماع منذ نشأته العديد من الاتجاهات والنظريات التي حاولت تقديم تفسير لمختلف الوقائع الاجتماعية، وفي محاولتنا البحث في إشكالية البداية والدعوة إلى الدراسة العلمية يبرز لنا خطان متوازيان، فإذا اتبعنا مسلك الدراسات الغربية التي أرخت للبدايات الأولى لاستخدام المنهج العلمي في دراسة المجتمع وظواهره، فيظهر لنا أوغيست كونت باعتباره أول من دعى إلى إخضاع الظواهر الاجتماعية للدراسة العلمية كما هو متبع في العلوم الطبيعية، وإن شئنا أن نأخذ بأراء أخرى تقع ضمن هذا الخط فسندرج لقرن آخر إلى الوراء أي إلى جيوفاني فيكو. (1)

أما إذا اتبعنا مسلك الكتابات العربية (وأيضاً بعض الكتابات الأوروبية المنصفة- وهو الخط الثاني) فإن حديثنا سيرتد إلى الوراء بأكثر من أربعة قرون ونقصد بهذا تحديدا الرجوع إلى إسهامات العلامة عبد الرحمان ابن خلدون. وبما أننا نتبنى الخط الثاني فسنعرض باختصار أبرز الإسهامات الخلدونية في الدراسة العلمية للظواهر العلمية:

يقول غاستون لوبون : لم تكن الوقائع الاجتماعية تفسر وتدرس بطريقة علمية تخضع لمنهج علمي، بل كانت عبارة عن تأملات فلسفية أو نظرات ذاتية تهتم بالبيوتوبيات والمدن الفاضلة وبما يجب أن تكون عليه حياة الناس...إلى أن جاء العالم الباحث ابن خلدون صاحب الذهن الوقاد . . . حيث طبعته الأحداث الفلقة التي تميز بها عصره . . . فظهر أثر ذلك كله في كتابه التاريخي العظيم وبدا في مقدمته المتفتحة المسهبة كأنه بشير بعلم اجتماع عتيد.

إن عناية ابن خلدون بعلم التاريخ وتتبعه لمثالب التي وقع فيها المؤرخون قد قاده في نهاية المطاف إلى استنباط علم جديد هو علم العمران البشري، ذلك العلم الذي يحتاج إليه المؤرخ لتمييز الحق من الباطل في الأخبار والحوادث، وفي ذلك يقول " فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في علم الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه أي (أي القوانين التي تحكم ظواهر المجتمع) وما يكون عارضا لا يعتد به (ما يقع من أحداث على صفة الاستثناء) وما لا يمكن أن يعرض له (ما لا يمكن حدوثه) وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا ندخل للشك فيه. (2)

- النظرية الاجتماعية: تحتل النظرية العلمية مكانة متميزة في البحث العلمي بصفة عامة، سواء كان موضوع البحث ظاهرة طبيعية أو إنسانية، ويفلق عليها نفر من الباحثين أهمية خاصة في تحديد هوية أي علم من العلوم، حتى أن بعضا من هؤلاء الباحثين يذهب إلى حد جعل دورها أكثر أهمية من دور المنهج العلمي، على اعتبار أن المنهج العلمي شيء مشاع بين كل العلوم. أما علم كعلم النفس وعلم الاجتماع مثلا فهي التي تحدد موضوعه وتنظم عملياته وأدواره، بل ومساره. (3)

يوجد اتفاق عام على أن مفهوم النظرية الاجتماعية هي: مجموعة من الافتراضات أو العبارات أو القضايا النظرية المرتبطة فيما بينها. وتكمن أهمية النظرية في أننا نقرأها لا نفهمها ونطورها فحسب بل لأن النظرية تمثل نمطا لبناء المعرفة العلمية وضرورة لكل ملاحظتنا، إنها الشرط الضروري لانطلاق التفسير والتحليل و أن صياغة النظريات العلمية وتصوراتها وتنظيماتها إنما تتحكم فيها مجموعة من الفرضيات والمفاهيم.

وبما أننا نتكلم عن النظرية الاجتماعية فإنها تشمل النسق الكلي للتفكير النظري في علم الاجتماع بما فيه من نظريات كبرى أو متوسطة المدى أو النظريات الصغرى كالاتجاه الوظيفي والاتجاه التفاعلي الرمزي، الاتجاه الفيمينولوجي.(4)

ثانيا: إمكان الصياغة العربية الإسلامية لعلم الاجتماع

دعت المشكلات التي يعاني منها علم الاجتماع المعاصر بالباحثين في ميدان علم الاجتماع في العالم العربي والإسلامي إلى الحديث عن فكرة بلورة علم الاجتماع بصيغة إسلامية، وذلك في إطار البحث عن الذات التي كادت تضيع في خضم عمليات التغريب والاستلاب الثقافي، ولنا أن نتساءل بعد ذلك : ما هي المشكلة التي يعاني منها علم الاجتماع عند المسلمين؟ (5)

لقد نظم الغربيون ونسقوا علومهم تحت ضغط احتياجاتهم الفكرية والعلمية والأيدولوجية، لذلك جاءت هذه العلوم محملة بتصورات الغربيين و مبادئهم. ومن بين أهم المشكلات التي تعاني منها هذه العلوم هو اعتمادها على بعض التصورات الخاطئة، ويقول في ذلك الشيخ محمد قطب: لقد أصبح الطابع المميز للفكر الأوروبي منذ النهضة هو التمرد على الدين، والتمرد على الله، وكان ذلك نابع من تأثيرين في آن واحد: التأثير الأول هو روح رد الفعل الذي قام ضد الدين و الكنيسة، والثاني هو تأثير الجاهلية الإغريقية في هذا الجانب بالذات، ويقصد بالتأثير الثاني الأثر الذي خلفته الأساطير الوثنية الإغريقية التي تصور العلاقة بين الآلهة علاقة صراع وخصام لا يفتر كأسطورة برومئوس الشهيرة. كانت النتيجة لهذين التأثيرين هي قيام الفلسفة الغربية التي تنظم وتحكم حياة الإنسان الغربي على أسس دنيوية لا دينية، يقول ديورانت: إن المفكر الغربي لم يكن في يوم من الأيام مفكرا دينيا، أي مفكرا متدينا.

ويمكن اختصار الأسباب الرئيسية لصياغة علم الاجتماع صياغة عربية إسلامية فيما يلي:

- 1- التصورات الغربية اللادينية الموجهة لهذه العلوم
- 2- صبت هذه العلوم اهتمامها على الجزء المنظور في الواقع، ولم تعترف بالجزء الغيبي منه.
- 3- النظريات والقضايا والحلول التي وجهت هذه العلوم هي قضايا تخص جزء من العالم هو الغرب، ومن الخطأ تعميمها على باقي أنحاء العالم. (6)

ثالثاً: الهدف من الصياغة العربية الإسلامية لعلم الاجتماع

الهدف الأول: من أهداف الصياغة الإسلامية هو أن يسير علم الاجتماع في ضوء المعتقدات الإسلامية الأساسية، التي تكون نظرة الإنسان العامة للوجود، ولا يعني هذا أن هذه المعتقدات هي موضوع علم الاجتماع، لكنها من الضروري أن تكون من السمات الأساسية لعالم الاجتماع المسلم، عند بحثه لأي قضية في حدود موضوع علم الاجتماع وهو " واقع المجتمعات البشرية في حدود كونها عالماً مشهوداً يمكن ملاحظته واستخراج خصائصه وقوانين حركته وتغييره".

الهدف الثاني: ربط المجتمع بالإسلام حيث أن نظام الإسلام شامل يتناول جميع شعب الحياة وينظم علاقات الإنسان مع نفسه ومع غيره، ذلك أن الإسلام طاعة شاملة لحكم الله في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأسرية والقانونية والتربوية، في الحرب والسلام، وفي كل علاقة بين شخصين، فكل هذه النواحي لها حكم ينظمها. إن المسلم لا يجد مشكلة في معرفة شمولية الإسلام، ولكن المشكلة في النظرة العامة السائدة عند بعض المتقنين الذين درجوا على رؤية العالم محصوراً بين أيديولوجيتين هما: الرأسمالية والاشتراكية ولو أنهم بذلوا أقل الجهد في فهم الإسلام، لأدركوا أن له رؤية متكاملة وشاملة. حيث تسلك مسلكاً وسطاً بالنسبة للمسائل الاجتماعية، كما أنها رؤية سابقة برزت للوجود قبل أن توجد الرأسمالية والاشتراكية، وهي ليست فكراً بشرياً وإنما وحي إلهي. (7)

الهدف الثالث: يهدف علم الاجتماع الإسلامي إلى وضع الخطط المستقبلية، وإيجاد الوسائل والسبل التي تكفل سير المجتمعات الإسلامية المعاصرة في حدود مبادئ الإسلام، وتقلل من ابتعادها عنه. ويعني هذا الهدف مواجهة التغيرات التي تطرأ على المجتمعات الإسلامية، وذلك باعتماد التغيير الاجتماعي المخطط، الذي يسير وفق خطط مدروسة وموضوعة بعناية.

رابعاً: القيم الثقافية الإسلامية إشكاليات و رؤى

يعتبر الحديث عن القيم من الضروريات التي يجب على الباحث مراعاتها عند تناوله المسائل الرئيسية في شتى الميادين، فالقيم لها من الأهمية ما يجعلها تشكل البناء الأساسي لأي عمل فكري اجتماعي يسعى لتفسير الواقع والتنبؤ به، سنتعرض فيما يلي لمجموعة القيم التي يمكن أن تشكل المبدأ العام لصياغة نظرية عربية اجتماعية.

1 - القيم الفكرية: وتنقسم إلى قسمين هما:

القسم الأول: فكرة العقلانية والحجب عن الثقافة الإسلامية

انتشر في ساحة الفكر العربي المعاصر إشكالية في التعامل مع فكرة العقلانية ومنابعها في الثقافة الإسلامية، فهناك ما يشبه التتكر والإهمال وقد يصل إلى حد الطمس والإلغاء وقطع الطريق عن تلمس

مصادر هذه الفكرة في الثقافة الإسلامية، وعند النظر في هذه الإشكالية وخلفياتها تتكشف لنا المواقف التالية: **أولاً:** هناك من يرى أن العقلانية ومنابعها هي سمة خاصة بالغرب، وتنفرد بها الثقافة الأوروبية، وليس لها أي أساس متين في الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي، ووصف الدكتور طه عبد الرحمن القائلين بهذا الرأي بأنهم أصابهم الاقتتان بالعقلانية، وصل بهم الميل بتخصيص أهل الغرب بهذه الفكرة حتى كأن غيرهم إن لم يحرّموا منها كلياً، فلا أقل من أنهم لم يعرفوها في خلوصها وإطلاقها كما عرفها أهل الغرب.

وحسب تصور هؤلاء أن الثقافة الأوروبية قامت وتشكلت على مرجعية العقل، بينما الثقافة الإسلامية قامت وتشكلت على مرجعية الوحي، ويقترّب من هذا الموقف ما أشار إليه الدكتور عبد الإله بلقزيز عند مقارنته بين العقلانية الليبرالية والعقلانية الإصلاحية الإسلامية، حيث يرى أن العقلانية الأولى أعلى درجة من العقلانية الثانية والسبب يرجع عنده إلى تحرر العقلانية الليبرالية من سلطة النص الديني الحاكم على العقلانية الإسلامية، واعتماد العقلانية الليبرالية على أصول عقلانية حديثة تخلصت من الحاكمية الأرسطية، وخاضت في فتوحات معرفية لم تلجها الثقافة العربية الإسلامية. (8)

ثانياً: هناك من يرى أن شعلة العقلانية في الثقافة الإسلامية انطفأت بعد عصور التراجع والجمود التي مرت على العالم الإسلامي وفعلت فعلها فيه، وتركت أثرها في مبادئ الفكر والمعرفة، ومن يريد البحث عن العقلانية فعليه أن يفتش عليها في منابع توقدها، وليس في منابع انطفائها.

ويستند هذا الموقف، على خلفية أن العقلانية تتأثر صعوداً وهبوطاً، توقدا وانطفاءً بجدلية التقدم والتراجع، فمع حركة التقدم تتأثر العقلانية صعوداً وتزداد توقداً، ومع حركة التراجع تتأثر هبوطاً وتزداد انطفاءً. ويقترّب من هذا الموقف من ما أشار إليه الدكتور كريم أبو حلاوة الذي يرى أن العقل الفعال حسب وصفه قد غادر بيئته العربية والإسلامية، وأصبحت الفلسفة التي كانت تتوَجَّح للمعنى العقلاني في التفكير نبأ شيطانياً وغريباً، وتكفلت عصور الانحطاط الطويلة من اقتلاع ما تبقى من غرسها في الوجدان العربي. وبعد هذه المغادرة باشر العقل فعاليته في وسط حضاري مغاير، يقصد به الدكتور أبو حلاوة المجتمع الأوروبي حيث تمكنت العقلانية الوليدة من إخضاع الطبيعة تدريجياً، وساهمت في تحديد واكتشاف العالم الطبيعي وغيره موقع الإنسان في العالم، ومن ثم موقع الأرض في الكون، متوسلة العلم الطبيعي والعقلانية الأدبائية، فكانت الثورة الصناعية، ومن ثم الثورة التقنية العلمية، وصولاً إلى ثورة مجتمع المعلومات. (9)

ثالثاً: هناك من يرى أن العقلانية وجدت في الثقافة الإسلامية، لكن هذه العقلانية وصلت إلى ذروتها في الثقافة الأوروبية، وذلك بعد النهضات والثورات والفتوحات التي شهدتها أوروبا منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر، وعصر الأنوار في القرن الثامن عشر، مروراً بعصر الحداثة والعولمة وثورة المعلومات في القرن الحادي والعشرين. وهذا يعني أن من يريد التواصل مع العقلانية فعليه أن يتواصل مع ذروة تقدمها، والتي تتجلى اليوم في الثقافة الأوروبية.

ويقترَب من هذا الموقف، ما أشار إليه الدكتور عبد الإله بلقزيز الذي يرى أن العقلانية استأنفت انتصاراتها المعرفية وانتشارها في العصر الإسلامي الوسيط على يد فرسان أشداء كان أبو الوليد ابن رشد أبرزهم، مع ذلك تضل العقلانية الديكارتية في نظره تمثل اللحظة المعرفية الأكثر تأثيراً في صناعة ملامح العصر الحديث، وفي إحداث أعظم الانقلابات المعرفية.

رابعاً: هناك من يرى صراحة ضرورة القطيعة مع فكرة العقلانية في الثقافة الإسلامية، و الانتظام الكلي والتام مع فكرة العقلانية في الفكر الحديث، وهذا هو الطريق الحتمي أمام العرب والمسلمين إذا أردوا تغيير أوضاعهم، والانتقال بها نحو مسارات التقدم والمدنية.

ولابد من هذه القطيعة في نظر هؤلاء كشرط للالتحاق بركب العقلانية الحديثة، فمن دون هدم القديم لا يتحقق البناء الجديد، ولابد من هذه القطيعة للتعبير عن الرغبة الجادة وامتلاك الإرادة الحقيقية في الالتحاق بركب العقلانية الحديثة، ولابد من هذه القطيعة للتخلص من إرث العقلانية القديمة ومن نظام العقلانية القديم، للالتحاق بإرث العقلانية الحديثة ونظام العقلانية الحديث.

مؤاربة، الدكتور عبد الله العروي و أشار إليه في كتابه (مفهوم العقل) الذي سخره لهذه المهمة. (10)

القسم الثاني: الأفكار ازدواجية اللغة

لقد غرس العصر الاستعماري ظواهر متصلة بالهياكل الاقتصادية والاجتماعية، والادارية، وهناك ظاهرة خاصة هي ازدواجية اللغة التي تتعلق ببنياها الثقافية والعقلية، وبأفكاره.

ففي مصر مثلاً اللغة الأجنبية المنافسة: هي الانجليزية، تؤثر هذه اللغة على زاوية معينة من العمل الفكري، يمكن أن نضعها في جانب، نموذجاً لبلد لديه ازدواج لغوي جامعي، وفي الجانب المقابل يمكننا أن نعرض الجزائر نموذجاً آخر، اللغة المنافسة هي الفرنسية، وهي تستوعب ليس فحسب حاجات العمل الفكري، بل الاتجاهات العادية للحياة اليومية، إذن لدينا هنا مشكلة ازدواجية لغوية شعبية. إن ازدواجية اللغة ليست فقط مجرد مفجر، بل هي أكثر من ذلك ديناميت قذف في العالم الثقافي، وإذا كان لم ينسف كل شيء فإن انفجاره أحدث اغرب الانشاقات. حيث ظهرت طائفتين من النخبة:

النخبة التي تتكلم العربية وتحاول مع (ابن باديس) أن تسترد الأصول الإسلامية، وهي الفكرة التقليدية التي أفلتت منها نهائياً مع سقوط الإصلاح، وفرار أتباعها إلى الوظائف العامة بعد الثورة. وطائفة تتكلم الفرنسية وتتنكر بكل الأفتعة : كالمصالية والكمالية، والحركة المضادة للمصالية، والبربرية، والتقدمية، و الوجودية المزيفة، والماركسية المزيفة، كي تخدم تحت كل سمة من تلك السمات آلهة اليوم وتوائم الساعة، وفي الحقيقة لتخدم نفسها تحت أي قناع من هذه الأفتعة.

لقد تتابع الفاصل الزمني طوال نصف قرن في عالم ثقافي خليط غير متجانس، حيث لا تستطبع فكرة أن تتبثق مؤمنة بنفسها لتفقد الشعب الجزائري الى مصيره. (11)

ويمكننا اليوم أن نرى الانشقاق الذي أحدثته ازدواجية اللغة أكثر عمقا، إذ أنه يتناول القمة والقاعدة. فالبلاد لم تعد تحتوي نخبتين وإنما مجتمعين متراكبين: أحدهما يمثل البلاد في وجهها التقليدي والتاريخي، والثاني يريد صنع تاريخها ابتداء من الصفر.

فالأفكار المطبوعة للأولين والأفكار الموضوعية للآخرين، لا تستطيع التعايش في عالم ثقافي واحد، فالمجتمعان يتحدثان بلغتين مختلفتين.

فما كان يقال عبر الراديو والصحافة وحتى في بعض الكتب المدرسية إذا كان في استطاعته أن يعبر عن الأفكار الموضوعية لأحد المجتمعين فإنه ليس له أي معنى بالنسبة للأفكار المطبوعة عند المجتمع الآخر.

وظهرت بعد الثورة تغييرات في المصطلحات و أخذ النقاش يدور حول بعض العبارات لاستبدالها بسواها. وهكذا تحدث الناس بالتدرج عن (الجندي) الذي كان فيما مضى (المجاهد) واجتاز النقاش بعد ذلك الألفاظ إلى البنى فاخترت (النظام) وحلت محله التراكيب الجاهزة، فظهرت بهذه الطريقة (اللجنة التنفيذية والمجلس الوطني للثورة الجزائرية)

كان المجاهد في البداية يطبع أمر المرشد الذي يدعو (الشيخ) فاستبدل ذلك بان أصبح للثورة ضباطها برتبة (كولونيل) ومنذ ذاك الوقت ظهرت مجموعة من المصطلحات الجديدة أخذت تسوق أفكارا غريبة عن العالم الثقافي الجزائري، ذلك العالم الذي رأته النور في داخله فكرة الثورة ذاتها ودوافعها. (12)

2- القيم الدينية والتاريخية:

يعتبر الدين إحدى أهم وسائل الضبط الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية، وذلك للمكانة المقدسة له حيث يعبر عن الدستور الذي ينظم حياة الفرد المسلم، بالمقابل نجد أن التاريخ جزء لا يمكن إغفاله حتى يستطيع الإنسان فهم حاضره والتنبؤ بمستقبله، وسنتطرق في هذا العنصر الى نوعين من القيم هما:

أولاً: الدين

إن الانسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة معلقة ضائعة، إذ لابد له من رباط معين في هذا الكون يضمن له الاستقرار ومعرفة مكانه في الحياة، ولذلك لابد له من عقيدة تفسر له ما يحيط به وتفسر له مكانه فيما حوله. فالدين ضرورة فطرية شعورية لا علاقة له بملابسات العصر والبيئة وكم كان شقاء الانسان وحيرته وضلاله حين أخطأ فهم حقيقة هذا الارتباط وهذا التفسير، أي أن حاجة الانسان للدين حاجة فطرية مركزة في طبيعته النفسية ومغروسة في شعوره وممتزجة في دمه و أعصابه وحسه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة فيشقى ويحار و يفقد الاستقرار، وهذه الحاجة الفطرية في الانسان للدين هي التي يتحقق بقضائها معرفته بحقيقة مكانته في هذه الحياة ورسائله وعمله ودوره الذي يجب عليه ان يؤديه مع أي انسان آخر يقوم بدوره في الحياة.

والدين باعتباره شريعة وعقيدة أي كنظام اجتماعي يحكم حياة الفرد ويحدد له قواعد سلوكه وكيفية معيشته في أسرته وكيفية تربية أولاده، وكيفية تعامله مع الناس بالعدل والفضيلة حتى يقوم المجتمع على أساس متفاهم متعاون على أداء الواجبات والحقوق ثم يتكامل هذا النظام الاجتماعي بوضع الأسس والقواعد والحلول التي تعالج قضايا المجتمع العامة اقتصادية كانت أم سياسية أم أخلاقية. (13) إن العبادة من الأمور التي لا تتبو عنها نفس الإنسان وطبائعه، فهي تمده بالقوة الروحية وتمنع اليأس من التسرب إلى قلبه والديانة خير رادع للمرء عن المنكرات، وفيها من التعاليم والأقوال الجميلة ما هو جدير بأن يحفضه كل إنسان ويعمل به. زد على ذلك أن الديانة لا تذهب من مجتمع إلا حلت محلها خرافة تكون أشد منها سيطرة على حرية الأفراد، وشعورهم الذاتي كما في تأليه الدولة مثلا. على أننا لا نريد أن نقول بذلك أن الديانة ستضل عليه في العصور الأولى تقيد حركة الأفراد وتمنع عنهم التفكير الحر. فان التطور الديني يحملنا على الاعتقاد أن العقول متجه إلى التخفيف من وطأة رجال الدين على العباد، ذلك لأن العقل السليم وليد التفكير العلمي يتطلب ديانة صحيحة منزهة عن الخرافات والأساطير تضمن وحدة الشعور وعدم تجزئته كما يوحي بها التفكير الفلسفي. (14)

الوحي:

ليس من الغريب أن يكون الوحي قرآنا وسنة مصدرا من مصادر علم الاجتماع الإسلامي، خاصة أن علم الاجتماع يدرس العلاقات الاجتماعية حيث لا يستطيع أن يستقل بعيدا عن الوحي، إن الأحكام التي تأتي بها الشريعة الإسلامية يسلم بها عالم الاجتماع المسلم دون أي تردد، ويقتصر دوره حيالها على صياغتها صياغة فنية تناسب الأساليب المتبعة في علم الاجتماع، فرأي الشريعة نهائي في الأحكام التي نصت عليها، وقد أثبت التاريخ أن الأحكام التي تأتي بها الشريعة هي الحل الصحيحة لمشاكل البشر، ولعلنا نمثل هنا بثلاث قضايا ناقشها علم الاجتماع المعاصر وغيره من العلوم الاجتماعية، كما قالت الشريعة رأبها فيها بشكل نهائي، وأثبتت تجربة التاريخ صحة الحل الشرعي.

1- حرم الشريعة الإسلامية الربا، قال الله تعالى "و أحلّ الله البيع وحرم الربا" البقرة الآية 275، بينما أجازته القوانين الوضعية، باعتباره صفقة تجارية كالبيع، وتعامل معه علماء القانون والعلوم الاجتماعية على هذا الأساس، وقد اثبت التاريخ عصمة الوحي الإلهي وبطلان الأحكام الوضعية التي يتوصل إليها البشر بأنفسهم بعيدا عن الوحي " فبسبب تحريم الربا استمر الاقتصاد الإسلامي لمدة ألف سنة، دون أن تظهر الطبقة الاجتماعية، والنظام الاقتصادي الحديث القائم على الربا هو أول نظام أنشأ الوضع الاقتصادي القلق في المجتمع، بتوزيع الثروات بطريقة غير عادلة وهذا النظام عاجز عن حل هذه المعضلة، " إن الربا هو الطريقة الوحيدة في التعامل الاقتصادي التي تجعل دورة الثروة تجري في اتجاه واحد، إن هذه الخاصية في الربا هي التي جعلت النظام الصناعي نظاما استغلاليا.

2- العقوبة في الشريعة الإسلامية تعتمد على أن الإنسان مخلوق له كامل الحرية والإرادة في اختيار أفعاله، فعند ارتكابه أي جريمة عمدا فإنما هو بقصده وإرادته، لذلك قررت الشريعة عقوبات رادعة للمجرم وفيها عبرة لآخرين وذلك حفاظا على التوازن والاستقرار الاجتماعي.

3- تنظر الشريعة الإسلامية إلى علاقة الرجل بالمرأة على أنها علاقة متكاملة، فدور المرأة مكمل لدور الرجل وعلى هذا بنت أحكامها المختلفة، ولكن بعض الدراسات الحديثة ومنها دراسات في علم الاجتماع روجت إلى فكرة المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، و أن كلا منهما متشابهين تماما، مما فتح المجال للمرأة للولوج لعالم الشغل بشراهة مما أنتج بعض المشكلات نذكر منها: (15)

- مشكلة الأولاد المحرومين من تربية الوالدين، حيث يتشبع الأولاد بثقافة أخرى غير ثقافة الوالدين وذلك بسبب غياب الوالدين المستمر عن البيت وترك مسؤولية التربية عند الحاضنة أو المربية.

- مشكلة كبار السن، فبينما يعاني الأطفال حنان الوالدين، يعاني الكبار الحرمان من أبنائهم وأصدقائهم الأوفياء، لذلك نشأت في بلادنا الإسلامية وانتشرت دور العجزة.

إن المجتمع الإسلامي هو صنيع الشريعة الإسلامية حيث استهدف الإسلام منذ اللحظة الأولى خلق الناس للعبادة كأساس للمجتمع الصالح والدولة الصالحة.

ثانيا: التراث الثقافي العربي الإسلامي

لعل أحكم الكلمات عن مكان الثقافة في شؤون البشر هي كلمات دانييل باتريك موينيهان الذي قال: "الحقيقة المحورية المحافظة هي أن الثقافة وليست السياسة، هي التي تحدد نجاح المجتمع، و إن الحقيقة المحورية الليبرالية هي أن الثقافة يمكنها أن تغير ثقافة ما وتحميها من نفسها". ورغبة في استكشاف صدق هاتين الحقيقتين التين عبر عنهما موينيهان نظمت أكاديمية هارفارد للدراسات الإقليمية والدولية مشروعا يديره لورانس هاريزون، ترى إلى أي حد تصوغ العوامل الثقافية التطور الاقتصادي والسياسي؟ وإذا كانت هي الحاكمة لهذه الصياغة، فكيف يمكن إزاحة أو تغيير العوائق الثقافية التي تعيق التطور الاقتصادي والسياسي حتى يتسنى تسيير عملية التقدم. (16)

الحقيقة هي أن احترام أي أمة لتراثها وتاريخها شرط لانطلاقها ونموها، كما أن احترام التراث هو احترام للنفس والذات، والاستهزاء به استهزاء بالنفس، ولا يمكن لأي أمة تنسلخ من تراثها أن تحقق أهدافها، يقول شكيب أرسلان " لماذا ترى أعظم شباب اليهود رقيا عصريا؟ يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغلها في القدم، ولا يقال عنهم أنهم رجعيون، ومتأخرون ومتقهرون؟.... كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات حياتهم، ومشخصات قومهم الموروثة، ولا ينبذون بهذه الألقاب إلا المسلمين... جميع هؤلاء الخلائق تعلموا، وتقدموا وترقوا، وعلوا وطاروا في السماء، والمسيحي منهم باق على إنجيله وتقاليده الكنسية،

واليهودي باق على وثته و أرزه المقدس، وكل حزب فرح بما لديه وهذا المسلم المسكين يستحيل أن يترقى، إلا إذا رمى بقرانه وعقيدته، ومآخذه ومشاركه، ومنازعه ومشاربه، ولباسه وفراشه وطعامه، و آدابه و طريه"

وبعدما عرفنا قيمة التراث الثقافي لأي أمة وجب علينا أن نتساءل: كيف يستفيد علم الاجتماع العربي والإسلامي من التراث الثقافي؟

أولاً: غن من أهم الأمور التي يمكن لعلم الاجتماع الإسلامي أن يستفيد منها هو تلك الروح التي تميز هذا التراث عن غيره فمن المعلوم أنه نتيجة علاقة وتفاعل مع الوحي، مما حدد له الغايات و أعانه في تحديد الوسائل، يقول الفيلسوف جارودي: "إن ما يميز العلم الإسلامي مأخوذاً بكليته، هو أنه لا يفصل أبداً بين الاستعماليين الرئيسيين للعقل : البحث عن الأسباب والبحث عن الغايات، أي الملاحظة والاستقراء اللذين يسمحان بالانتقال من الواقع إلى القوانين والنظريات، وبالصعود من غاية لغاية، من غاية تابعة إلى غاية أسمى"

ويوضح جارودي كلامه هذا في مكان آخر: " وليس صحيحاً كذلك أن العلم العربي مجرد تاريخ انتهى، قبل أن ينتهي تاريخ علمنا، فالعلم العربي خلافاً لتصورنا الوضعي لا يفصل العلم عن الحكمة، إذ لا يغيب على ناظره: المعنى والغاية... وبما أنه لا يعتبر الشيء مجرد واقعة بل ينظر إليه على أنه آية، سواء أكان ذلك من ظواهر الطبيعة، أم من كلام الأنبياء، فهو لا يعزل تحليل العلاقات بين الأشياء لاكتشاف قوانينها، عن تركيب علاقاتها بالكل الذي يعطيها معنى.. فكل شيء دنيوي، إذا ما نظرنا إليه من خارج علاقاته بالكل، ومقدس "ديني" حتى أقل ذرة، إذا ما نظرنا إليه من حيث علاقته بالله" (17)

وقد كان الإخلاص في كسب رضا الله سبحانه وتعالى، وراء ترفع العلم والعلماء عن خدمة الأغراض الدنيوية والنفعية، بحيث تقلب الحقائق ويصور الباطل في صورة الحق.

وهذا ما يخالف الروح الحديثة التي تسير الكثير من العلماء في كافة المجالات، فقد انصب اهتمام العالم على الفترة العمرية التي يعيشها ومن هنا نشأت مفاهيم : المنفعة، واللذة والحسية، والفردية، التي طبعت الحياة الاجتماعية بطابعها، وقد أصبح العلماء على استعداد لتبرير أكثر الأعمال وحشية، والاندماج في خدمة السياسات الظالمة القاهرة. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ولعل ما كتبه رينيه جاندارم يعبر صراحة عما نقصد. فقد كتب عن العوامل الاقتصادية والثقافية التي تقف حجرة عثرة أمام التنمية الاقتصادية ومثل على ذلك بالإسلام في الجزائر، ويقصد من كتابه "تسوية الوجود الاستعماري، مؤكداً أن دور الاستعمار يصبح جليلاً وشريفاً إذا كان غرضه تنمية الإمكانيات الاقتصادية، والخيرات التي وفرتها طبيعة هذا البلد، ولم يتمكن العرب من إدراك أهميتها ولا من إحكام استغلالها."

من ناحية أخرى فإن النظريات والآراء التي طرحها التراث تشكل خلفية تاريخية، لها أهمية كبرى عند دراسة معظم الظواهر الاجتماعية، فهو من هذه الناحية يعد مستودعا للتجارب التاريخية، التي مرت بها الأمة الإسلامية، وهذا يفتح أمام الباحث آفاقا كثيرة للبحث والدراسة، كما أن الكثير من هذه الآراء والنظريات، لم تفقد أهميتها لحد الآن، وأذكر هنا نظريات ابن خلدون، التي لا يزال الكثير منها يتمتع بالمصداقية والواقعية، و بل إن فكر ابن خلدون أقرب في مجمله إلى فهم واقعنا من كثير من النظريات المستوردة، يقول أحد الباحثين " إن الست قرون الماضية التي تفصلنا عن ابن خلدون لا تشكل حاجزا بيننا وبين مقدمته... بل لعلنا لا نبالغ إن قلنا: إن المقدمة تكاد تكون المؤلف العربي الوحيد، الذي نحس حين مطالعته بأنه يتحدث فعلا إلينا، وبأنه فعلا منا ولينا، وبالتالي نشعر أنه أكثر معاصرة منا لأنفسنا وواقعنا.. وبعبارة أخرى أننا عندما نقرأ المقدمة نشعر أننا نقرأ ما لم نكتبه بعد، فقد حوت مقدمة ابن خلدون نظريات قيمة بمنظور العصر الحاضر، نذكر مثلا على ذلك: " أن المغلوب مولع أبدا بالافتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوانده" ويذكر السبب في ذلك بقوله " أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها" وهذا ما هو واقع في معظم البلاد العربية الإسلامية.

الأمر الثاني: إن المقصود من استلهم التراث لا يعني أن نبحث عن إجابة عصرية في التراث فنتساءل مثلا: هل قال ابن خلدون بمبدأ جبرية الظواهر الاجتماعية - كما هو رأي دوركايم- أم لا؟ فإذا وجدنا ابن خلدون قال ذلك حكما بصلاحيته تراثه و كفاءته، وإن لم يقل ذلك حكمنا بأن لا فائدة من التراث، وأنه عاجز عن مسايرة العصر. إن مثل هذا الموقف مع أنه يخطئ فهم الصياغة الإسلامية، فإنه من جهة أخرى ينتهي بالتقليد العقيم، والاستسلام للنظريات الغربية السائدة.

والمقصود باستلهم التراث هو الالتزام بمقوماته ومسلّماته، وما يتعامل معه التراث كبداهيات، والكشف عما لا يزال من ذلك حيا في حياتنا المعاصرة ونمط تفكيرنا.

وثالث هذه القضايا هي: التأكيد على الالتصاق الوثيق بين التراث والإسلام، ولغته العربية " وأي محاولة على تصوير تراثنا على أنه مجموع ممارسات علمانية لا علاقة لها بالإسلام، أو حشد من الخبرات وأن التجارب الإسلامية لا علاقة لها بالعروبة، وتسعى لفصل بين الاثنين، إنما هي محاولة انفعالية غير علمية، جزئية غير كلية، موقوتة غير دائمة وطائرة غير أصلية" فالحديث عن تراث قومي وعن مراحل فرعونية أو فينيقية، أو بابلية أو نحو ذلك، خدعة كاذبة فتراثنا الحي إسلامي الهوية، عربي اللغة " وكل ما سبقه فهو مما وقع عليه سيف الانقطاع الحضاري فتوقف لأن لغته ماتت، ولم يعد له وجود حقيقي".

ثالثاً: التراث النظري في علم الاجتماع

لا يمكن أن يقوم علم الاجتماع العربي الإسلامي بمعزل عن التراث العالمي، فكثير من الدراسات والأبحاث السوسولوجية تبحث عن الحقيقة وتلمسها، وليس من الفائدة في شيء أن ترفض مثل هذه الأبحاث وإنما الذي يرفض من علم الاجتماع دون تردد هو الأيديولوجيات والفلسفات، والخلفيات العقائدية التي تشكل أطرا عامة لهذا العلم، ويرفض أيضا كل ما هو من خصوصيات الغرب التي تمثل " معاناته التاريخية وردود فعله على عصوره الوسيطة، ومواجهته لتعسف الكنيسة ونسقتها وقهر اللاهوت والميتافيزيقيا إلى غير ذلك من الهموم التي عاشها، ولسنا في حاجة إلى أن يصدرها إلينا لكي تضاف إلى همومنا"

إن واجب عالم الاجتماع العربي المسلم اتجاه التراث العالمي لعلم الاجتماع هو التفاعل معه، على ضوء موقفه النظري الإسلامي، فما وافق موقفه عمل به، وما خالفه انتقده انتقاد توجيه وإصلاح. إن التراث العالمي يخضع للمبدأ الذي جسده الحديث النبوي الشريف " الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها" يقول الدكتور أبو بكر باقادر " ولا شك أنه ليس من مصلحتنا العلمية أن نرفض علما أو حكمة ما، لكون صاحبها غير مسلم أو غير ملتزم بالقيم والمثل التي نفترض توافرها في الدراسات الاجتماعية، وإنما لن نرفض التراث العالمي جملة، ولكن لن نقبله جملة أيضا، وإنما سوف نتعامل معه على أساس من معايير أو مقاييس تساعدنا في التقويم والنقد والتفاعل، ونختار من هذا التراث الذي يمثل التراث الإنساني " وهذا بالضبط موقفنا من النظريات و آراء مفكري ومؤسسي علم الاجتماع الغربيين. (18)

ومن الخطأ مطالبة علم الاجتماع العربي الإسلامي بالانطلاق من الصفر، ولا بد للانتباه طبعاً لما هو من خصوصيات المجتمع الغربي، ولعل أهم جانب يمكن لعلم الاجتماع الإسلامي أن يستفيد منه من التراث العالمي هو جانب مناهج البحث، التي تبدأ بحركة التوثيق سواء كان مكتيباً أو ميدانياً، وتنتهي بالتفسير والتخريج والإجابة عن تساؤلات البحث. إن الشروط العلمية لأي بحث والمتعلقة بالنزاهة والأمانة وطلب الحقيقة والصدق والبعد عن الذاتية، كان للمسلمين فضل كبير في احترامها والتنبه لها.

إن استخدام مفاهيم منقولة من مجتمع لآخر، يعني في نفس الوقت إسقاط جزء من تاريخ المجتمع، الذي نبتت فيه هذه المفاهيم على المجتمع الذي نقلت إليه، وربما يكون هذا المجتمع لم يمر أبداً بما مر به المجتمع الآخر، مما يعني تشويه الواقع. فالمفهوم ليس عبارة عن لفظ محايد وبريء ولكنه لفظ نبت عن ظروف معينة، ومنغمس في العقائد وقد يكون له تاريخ طويل، فهو ليس بريئاً البتة، فلو استخدم باحث المفاهيم التالية: علاقات الإنتاج الأبوية، البدائية، العبودية، الإقطاع، الارستقراطية التجارية، الجماهير، الصراع الطبقي، المادية، وسائل الإنتاج، ثم حاول تطبيقها على المجتمع الإسلامي في فترة معينة لأدى به ذلك لقلب الحقائق تماماً، واختراع مجتمع لم يره تاريخ المسلمين في يوم ما، ولا ريب أنه سيكون أقرب للمجتمع الأوروبي، التي نبتت فيه مثل هذه القيم.

خاتمة:

لقد حان الوقت لكي يباشر علماء الاجتماع في العالم العربي والإسلامي لتجسيد فكرة صياغة علم الاجتماع صياغة عربية إسلامية، فالتراث الثقافي الأدبي لنا يشكل كنزا لم نعرف قيمته بعد، حيث يحتاج هذا التراث إلى قراءة سوسولوجية متأنية، هذا بالإضافة إلى تميز العالم العربي والإسلامي بمجموعة من السمات التي تختلف من حيث الشكل والمضمون والوظيفة عن مختلف المجتمعات الأخرى.

وهذا التمايز يحتاج لدراسات امبريقية على ضوء نظرية سوسولوجية عربية إسلامية متميزة تحاول إيجاد الحلول للكثير من المشكلات والظواهر الاجتماعية المنتشرة في ربوع الوطن العربي، بتكون مستقلة عن النظريات الغربية التي نتجت عن واقع اجتماعي مختلف تماما عن ما هو موجود في عالمنا العربي والإسلامي، حيث عرفنا أهمية السمات الثقافية التي يجمع الباحثون الاجتماعيون على أنها ركيزة التقدم الحضاري.

ومن البديهي والضروري ألا يكون هذا العلم منغلق على نفسه، وعلى التراث العالمي في علم الاجتماع، ذلك أن من مميزات العلم أنه تراكمي ينتج ويتطور اثر دراسات متتالية تعبر كل منها عن اجتهاد جديد يساهم في بناء أي علم. ولو أخذنا بهذا الميزان الذي نهتم فيه بما أنتجه علم الاجتماع الغربي من تفسيرات علمية للظواهر الاجتماعية و الأخذ بإسهامات العلامة ابن خلدون فسيكون لنا حجر أساس متين لبناء هذا العلم.

الهوامش:

- 1- سفاري، ميلود، وسعود، الطاهر. (2007). المدخل إلى المنهجية في علم الاجتماع. الجزائر: مخبر علم اجتماع الاتصال جامعة منتوري.
- 2- نفس المرجع، ص 117،118.
- 3- عبد المعطي، عبد الباسط. (1981). اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الكويت: عالم المعرفة.
- 4- بوجلال، مصطفى. (2015). علم الاجتماع المعاصر بين الاتجاهات والنظريات. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 5- المطيري، منصور زويد. (1992). الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان. قطر: وزارة الشؤون الدينية بدولة قطر.
- 6- نفس المرجع، ص 41،57.
- 7- نفس المرجع، ص 116،117.
- 8- الميلاد، زكي. (2014). الإسلام والعقلانية ضد الجمود وضد الاستلاب. لبنان: أطراف للنشر والتوزيع.
- 9- نفس المرجع، ص 28،29.
- 10- نفس المرجع، ص 29،30.
- 11- بن نبي، مالك. (2013). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. الجزائر: دار الوعي.
- 12- نفس المرجع، ص 137،139.
- 13- الخريجي، عبد الله. (1990). علم الاجتماع الديني. المملكة العربية السعودية: رامتان للتوزيع.
- 14- شلحت، يوسف. (2003). نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني. لبنان: دار الفرابي.
- 15- نفس المرجع، ص 123.
- 16- هاريزون، لورانس إي، و هنتجون، صمويل بي، ت، شوقي، جلال. (2005). الثقافات وقيم التقدم. مصر: المجلس الأعلى للثقافة بمصر.
- 17- المطيري، مرجع سبق ذكره، ص 1142،143.
- 18- نفس المرجع، ص 142،143.